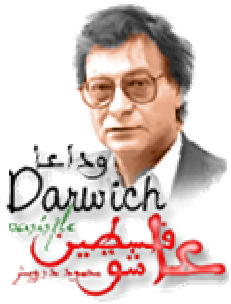

استراتيجيات ˚ الخطاب الشعري
في قصيدة "الجسر" لمحمود درويش

تقديم أ.وردة سلطاني

تمهيد : تمثل هذه المداخلة محاولة لدراسة شعر محمود درويش عبر نموذج محدد , أحاول عبره ملامسة بعض الأطياف من مظاهر تجربة الشاعر الشعرية التي شكلتها لغة شعرية ثرية تترجم معجمه الشعري الثر.وقد رسمت لهذه الدراسة خطوطا عريضة , فلامستها في منطلقين أساسيين هما: البنية السردية – والتناص.

لقد رسم النقد القديم للشعر والنثر خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا,وهو ما يعرف بصفاء أو نقاء الأجناس الأدبية, أما النقد الحديث فقد قوض دعائم هذه المقولة, ودعا إلى تداخل الأجناس الأدبية, فانهارت الحدود المرسومة بينهما وأصبحنا نواجه في الشعر مظاهر السرد، كما نجد في السرد مظاهر الشعر المتمثلة خاصة في اللغة الشعرية، فأصبحنا نسمع بشعرية القص, وشعرية المحكي....الخ فتشعرن السرد وتسردن الشعر يقول عبد المالك مرتاض في هذا المضار: " فبمقدار ما كانت الهوة سحيقة بين الشعر والنثر الأدبي في العصور القديمة, بمقدار ما اغتدت ضيقة في العصور المتأخرة, حتى أن بعض النظريات النقدية الجديدة تحاول في بعض مقولاتها إزالة الحواجز بين الصناعتين [1]

1-البنية السردية:

يسعى الشاعر في هذا النص إلى خلق نصية مغايرة في جماليتها حيث تتأسس بنيتها الشعرية على حدود مفهوم الخارج/ الداخل. إذ تظافر البناء الداخلي مع البناء الخارجي لتوصيل التجربة الشعرية، لذا نجد على صعيد التشكيل الشعري، يلعب الرمز دورا أساسيا في بنيته وكثيرا ما يلجأ الشاعر إلى الإيحاء، وقد قاده التمثيل الوصفي للغة إلى الاتكاء على السرد كتقنية تساعده على اختزال مراحل المقاومة الفلسطينية وصهر جوانبها التاريخية بطريقة تلعب فيها اللغة الشعرية دورا رئيسا لإعطاء الظلال ، والاعتماد على التلميح بدل التصريح، مما يجعل النص متشبعا بالدلالات " فالكتابة الشعرية... تتجاوز غواية الحوار الخارجي للموجودات من خلال الغوص في مكنونات ينبوعها الداخلي ومضمراته وتفتحات حدوسه المضطربة"[2] .

الإطار العام لقصيدة " الجسر": تلخص القصيدة مراحل المقاومة الفلسطينية في مواجهتها للاحتلال، ومن جهة أخرى لعبة الاحتلال في اغتصاب وطن وتشريد شعب.

ملخص النص: قسمنا النص خمسة مقاطع تؤطرها حكاية ثلاثة أشخاص عائدين ؛ شيخ وابنته، وجندي قديم. يقررون العودة إلى وطنهم فلسطين يقفون عند الجسر، رغبة في عبوره إلى الضفة الأخرى حيث تركوا منازلهم، ولكن حراس العدو منعوهم بحكم قرار هو إطلاق الرصاص على كل من يجتاز الجسر، فأصر الجندي القديم على العبور فاخترقته رصاصة. أما الشيخ فيأخذ كف ابنته ويسير فوق الجسر فيسقط في النهر. وتبقى البنت يتيمة ممزقة الثياب يعبث فيها الإسرائيلي فسادا.

تقطيع النص إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: قرار العودة

المقطع الثاني: الإصرار على تنفيذ القرار

المقطع الثالث: منع من العبور

المقطع الرابع: خرق وعصيان للعدو

المقطع الخامس: – موت وتشريد شخصيات الحكاية

– استحالة عبور الجسر

القصيدة / الحكاية، يعتمد الشاعر في سرد حكاية الشخصيات الثلاث على راو ضمني داخل حكائي يمثل أنا الشاعر ، ولا تظهر أصوات الشخصيات إلا من خلال صوت الراوي الذي يقدمها .

ففي المقطع الأول: يلعب التقديم والتأخير دورا في جمالية الأسلوب والمتمثل في تلك الظاهرة المأخوذة بين اللغات الأجنبية، حيث يأتي فعل القول بعد المقول في نص الحوار على غير عادة اللغة العربية في تقديمه نلاحظ ذلك في مطلع القصيدة :

" مشيا على الأقدام ,

أو زحفا على الأيدي نعود

قالوا..."

يطالعنا الراوي في الحكاية بالشخصيات كضمير جمع وهي تتخذ قرار العودة مهما يكن ثمنه .

المقطع الثاني: يواصل الراوي سرد حكاية العائدين فيحدد الزمكان ؛ الشخصيات وضعت القرار حيز التنفيذ وسارت في الظلام متخفية خلف الصخور يقول:

"كان الصخر يضمر

والمساء يدا تقود ..... "

ثم ينفصل الراوي عن الشخصيات في ذلك التعليق الرائع ,فهو يعلم أكثر مما تعلم , سيذكرهم بأن طريق العودة محفوف بالمخاطر, وقد هلك قبلهم من سولت لهم أنفسهم أن يجربوا طريق العودة إلى ديارهم .

" لم يعرفوا أن طريق إلى الطريق

دم ومصيدة وبيد...

كل القوافل قبلهم غاصت "

ثم يقدم الراوي شخصيات الحكاية وهم ثلاثة : جندي قديم , وشيخ وابنته يقفون عند الجسر , كانوا يأملون في العودة , بعد دقائق سيصلون إلى بيوتهم فتحسس الشيخ مفتاحه , فسألته ابنته عن الماء , وكان الشيخ يبدى فرحته بإعادة بناء بيته عندما يصلون .لم تكتمل فرحته, إذ سمع صوت الرصاص وسمع صوت يهتف , تعالوا , لن يمر العائدون .

الملاحظ على المقطعين أن وتيرة السرد كانت تسير برتابة إذا اتكأ الشاعر على الفعل (كان).”كان الصخر يضمر,كان النهر يبصق , كانوا ثلاثة , كان الجسر نعسانا , كان الليل قبعة". هذه الأفعال الماضية نحويا تعطي الزمن الماضي المطلق , وتكرارها يجعل السرد رتيبا , أما على صعيد التجربة الشعرية هذه الرتابة تترجم لنا أن كل ما حدث انتهى أمره , ولن يحدث أكثر مما حدث , لن نستطيع أن نغير ما حدث , لكن العبارة الأخيرة تتأسس عليها المقاطع الموالية .

المقطع الثالث : يتأسس على مقولة المنع , حرس الحدود يمنعون الأشخاص من العبور إلى الضفة الأخرى .

"لن يمر العائدون...

حرس الحدود مرابط

يحمي الحدود من الحنين

(أمر بإطلاق الرصاص على الذي يجتاز هذا الجسر ....)"

يمثل هذا المقطع حضورا قويا ثقيلا لقوى الاحتلال فهم لا يملكون سوى لغة الأمر والقتل, وجودهم يستحضر الموت بكل أبعاده: الموت في المنفى , أو الموت تحت الذل والأمطار , ومن يرفض هذا يموت عند هذا الجسر .

" (هذا الجسر مقصلة الذي رفض

التسول تحت ظل وكالة الغوث الجديدة

والموت بالمجان تحت الذل والأمطار, من

يرفضه يقتل عند هذا الجسر , هذا الجسر

مقصلة الذي مازال يحلم بالوطن) "

المقطع الرابع: يمثل عملية الخرق والعصيان , الجندي القديم يعصي الأوامر, والشيخ لا يأبه لهذه الأوامر , فيمسك بيد ابنته ويسير مرددا سورة من القرآن .

الملاحظ على مستوى القصيدة في سرد هذه الحكاية لا نجد الشخصيات الثلاثة تقوم بهذا الفعل , بل يكتفي الشاعر بالتلميح بذلك , وتترك اللغة الشعرية تلقي بظلالها وتختصر المشهد في الفعل الذي قام به الاحتلال. والمشهد مختصر, غائب/حاضر, غائب على مستوى السرد حاضر على مستوى الدلالة , فهو يعني أن الفلسطيني غير مسموع على مستوى الفعل والقول , بينما الحضور يكون للقوي بسلاحه وهذا ما نجده في المقطع الموالي.

المقطع الخامس الأخير: وفيه حضور ثقيل للموت , إذ يأتي كتتويج تراجيدي للذي يعصي الأوامر , وإذا كان المشهد السابق غائبا على مستوى النص الشعري يحضر هنا كنتيجة تتلخص في أربع نقاط هي بمثابة مراحل المقاومة :

المرحلة الأولى: الحضور القوي للاحتلال بكل قواه, كما تحضر اللغة الشعرية بقوة لتمثيل المشهد , فنقرأ مثلا في المشهد الثاني " كان الجسر نعسانا , وكان الليل قبعة " .

فالجسر في الواقع هو وسيلة عبور من ضفة إلى أخرى, يسهل على الناس عملية الاتصال؛ إذا فهو وسيلة من امتلكها امتلك التحكم في أشياء كثيرة , ومن لم يمتلكها سيخسر أشياء كثيرة.

لكن الجسر في النص استعمل استعمالا رمزيا , فهو وسيلة قوة للاحتلال , رمز القوة العسكرية للسلاح والسيطرة .

أما عبارة وكان الليل قبعة، فالليل رمز للاستعمار والاحتلال في حالة اللا فعل , أي وهو متغافل عن الطرف الآخر .

ثم تنقلب الموازين عندما نجد الشخصيات الثلاث لا تنصاع للأوامر, مباشر تأتي " الطلقة الأولى أزاحت عن جبين الليل قبعة الظلام". وتتلخص في أن الاحتلال استفاق بكل قوته وأعد العدة للمواجهة وهذا ما يلخص المرحلة الأولى.

المرحلة الثانية : "الطلقة الأخرى

أصابت قلب جندي قديم "

فالجندي القديم رمز لتاريخ المقاومة الفلسطينية القديمة قدم الاحتلال, فالجندي القديم الذي خرق قوانين الاحتلال عند الجسر أطلق عليه الرصاص فمات, وهذا دليل على أن المقاومة ضعيفة أمام قوة الاحتلال بقوته وعتاده فهزمها.

المرحلة الثالثة: يلخصها الشيخ وابنته . الشيخوخة دلالة العجز , والشيخ هنا رمز للشعب الفلسطيني المتمسك بعقيدته , وبأرضه , وبحقه في العودة , وهذا ما تترجمه السطور الآتية:

" وتحسس المفتاح ثم تلا من القرآن آية

.....

والشيخ يأخذ كف ابنته ويتلو

همسا من القرآن سورة ".

هذا الشعب عاجز عن أن يفعل شيئا حيال قوة الاحتلال, لكن ضعف هذا الشيخ وقلة حيلته جعلته يترنح فوق الجسر ويسقط في النهر, وهو دلالة على الشعب الذي يغرق في دوامة الاحتلال .

المرحلة الرابعة: تلخصها البنت. ليست امرأة ناضجة, وليست شيخة هرمة , بل هي فتاة في عمر الزهور. يحدوها الأمل من كل جانب. فهي دلالة للأرض والوطن وهو الأمل.

البنت في القصيدة/ الحكاية . لم تقتل مع والدها , رغم أن والدها الشيخ سقط في النهر,إلا أنها بدونه أصبحت يتيمة. نقرأ في هذه السطور:

"والبنت التي صارت يتيمة
كانت ممزقة الثياب
وطار عطر الياسمين
عن صدرها العاري الذي
ملأته رائحة الجريمة "

فالبنت التي هي مقابل للأرض بالرغم الذي فعله الشيخ من أجلها فلم يستطع حمايتها فسقط في النهر , أي عندما فشلت المقاومة عجز الشعب عن أن يحمي الأرض فغرق في دوامة الاحتلال .

ويأتي الجزء الأخير من المقطع كنهاية مأساوية تنم عن يأس مطبق , إذ نجد على مستوى السرد يعود الراوي إلى التعليق بواسطة تكرار اللازمة :" عاد النهر يبصق ضفتيه

قطع من اللحم المفتت
في وجوه العائدين
لم يعرفوا أن الطريق إلى الطريق
دم ومصيدة ...ولم يعرف أحد
شيئا عن النهر الذي
يمتص لحم النازحين "

دلالة النهر كمؤشر , فضاء محسوس متحرك ,هو مصدر للخير والسلام .قدم في النص بدلالات معاكسة تماما , إذ أصبح مصدرا للموت " النهر يمتص لحم النازحين, النهر يبصق ضفتيه قطعا من اللحم المفتت في وجوه العائدين, كل القوافل قبلهم غاصت "

فالنهر إذا رمز للكيان الصهيوني , للمحتل, فهو كالنهر الجارف الذي أبتلع كل من جرب العبور.

وتنتهي القصيدة / الحكاية بيأس حين يكبر الجسر ويكبر حتى يصير كالطريق وتكبر معه الذكرى وطعم الحب للوطن.

من هنا نستطيع أن نلخص البنية السردية التي توافق النموذج الوظيفي عند **بروب** وهو كالآتي:

– قرار العودة	الشخصيات تقرر العودة
– تنفيذ	الشخصيات تنفذ القرار بكل تبعاته
– منع	قوات الاحتلال تمنع الشخصيات من العبور
– خرق	الشخصيات تخرق القرار
– موت	موت الشخصيات , استحالة العبور

من هنا يعلو صوت الراوي الذي لا يبقى في الحكاية إلاه . فضاء الحكاية خاو إلا من الراوي, حتى على مستوى الحضور كممت أصوات الشخصيات وقدمها الراوي كضمير غائب , حتى في قمة حضورها وهو الحوار.

الخطاطة السردية:

في ضوء قراءتنا للنص نستطيع أن نختزل القصيدة / الحكاية في الخطاطة السردية المشكلة من التركيبين ؛ التوازن واللاتوازن . تبدأ الحكاية من التوازن وتنتهي باللاتوازن, فغياب التوازن نلمسه على مستوى السرد وعلى المستوى المرجعي كذلك.

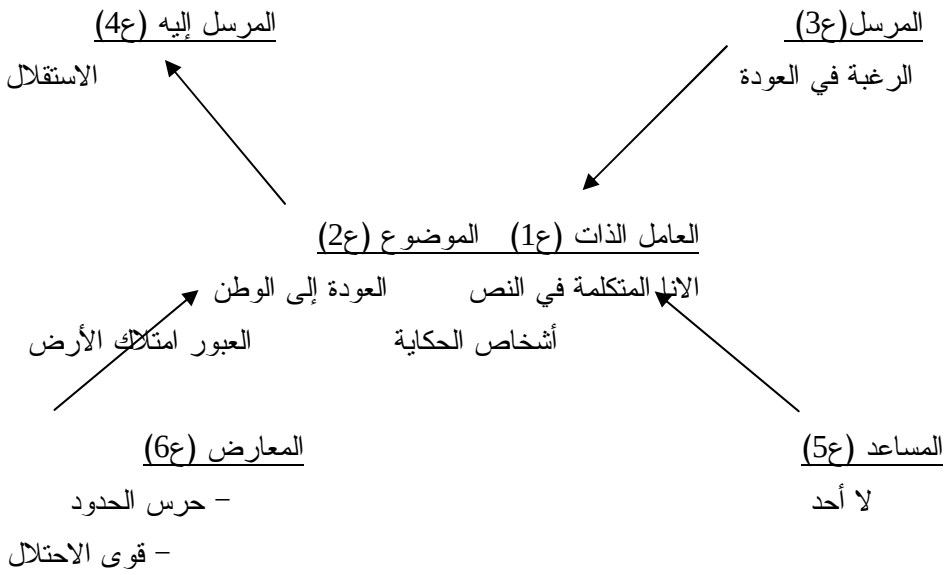

قراءة الخطاطة: الذات المتكلمة في النص وهي أنا الشاعر (الراوي) والشخصيات . وهي في حالة انفصال عن الموضوع ترغب في امتلاك موضوع وهو الأرض والمتمثل في القصيدة بالعبور , من اجل هدف سام وهو حق كل إنسان في العيش في ظل الاستقلال .العامل الذات في إطار امتلاكه للموضوع لا يجد مساعدين يساعدونه , بل يوجد معارضون له وهو الاحتلال المتمثل في حرس الحدود وقوة السلاح .

2- التناص:" يؤمن بعض المنظرين أن التناص هو الحالة الفطرية للأدب, وأن كل النصوص تحاك من نسيج نصوص أخرى "(3) سواء علم كتابها بذلك أم لم يعلموا , ويضع بعض الكتاب علامات وإشارات دالة على تلك الإحالات , بينما يتوارى آخرون وراء ألف حجاب.(4)

وقد اعتمد الشاعر في هذا النص نمطا من التناص يعرف بالموازاة في التركيب , حيث يحافظ على الهيكل العام للنص الأصل كما يحافظ على العناصر الأساسية فيه ويسير بالموازاة معها .

تتناص القصيدة مع قصة **إرنست همنجواي** التي تحمل عنوان "الرجل العجوز عند الجسر " والتي استوحاها كاتبها من أجواء الحرب العالمية عندما كان مجندا مع الحلفاء في ايطاليا, ففي إحدى القرى الحدودية مع برشلونة وضع الجنود جسرا على نهر يعبرونه هروبا من غارات العدو. تسرد القصة حكاية رجل عجوز عند الجسر قطع مسافة طويلة وعندما بلغ الجسر تعب فجلس ولم يقوى على العبور, وكان معه ثلاثة أنواع من الحيوانات: معزتان , وقطة, ثم أربع أزواج من الحمام. كان يرعاها ليست لديه أسرة ولا أهل ، وهي كل شيء لديه , وبما أنه لم يستطع العبور ترك القطة تعتني بنفسها , وفتح القفص فطار الحمام , أما بقية الحيوانات فلم يعرف ما حل بها , لقد حاول الجندي أن يساعده على العبور، إلا أنه لم يستطع بسبب الضعف ، وتنتهي القصة باستحالة العبور إلى الضفة الأخرى .

بالمقابل نجد قصيدة درويش تحمل عنوان الجسر الذي يصبح في النصين وسيلة معيقة للعبور إلى الضفة الأخرى.

الشخصيات في القصيدة كانت ثلاثة شخصيات (كانوا ثلاثة عائدين , شيخ وابنته وجندي قديم) , وفي القصة الرجل العجوز معه ثلاثة حيوانات :

"وسألته : وما هي هذه الحيوانات ؟

وقال هو :

– كانت كلها ثلاث حيوانات , معزتان وقطة وأربع أزواج من الحمام "

الشخصيات في النصين كلاهما مصيره مجهول , حيوانات الرجل العجوز في القصة تركها ولا يعلم بمصيرها . الشخصيات في القصيدة واحدة ماتت والأخرى غرقت في مياه النهر فمصيرها مجهول, والبنت تيتمت وأصبح مصيرها مجهولا كذلك . نهاية النصين كلاهما انتهى باستحالة العبور إلى الضفة الأخرى.

الهوامش:

•مصطلح استراتجيات القراءة يحيل على النقد الحداثي وهي (ميتا نقد) حلقة من حلقات جدل المناهج ، ويعني هذا المفهوم ميتا نقد ثقافة الناقد أو القاريء العارف، وبمرجعياته المعرفية، والفكرية والجمالية والنفسية، وبرؤيته الخاصة للنص المقروء، وهو ما يطلق عليه استراتيجيات القراءة أو النقد، كما أن استراتجيات القراءة تنفتح على الآخر (النقد الغربي) دون الخضوع له، بل من أجل خلق الحوار والتواصل معه. ينظر بشام قطوش مقدمة كتاب استراتجيات القراءة دار الكندي للنشر والتوزيع، 1998, ص7.

[1] - عبد المالك مرتاض, نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر ,2007، ص93، ينظر كذلك يوسف وغليسي، الشعريات والسرديات منشورات مخبر السرد العربي ، جامعة منتوري قسنطينة، 2006, ص: 155 وما بعدها.

2 -محمود السرساوي.محمود درويش .التجربة الشعرية المايرة والنقد الغائب .مجلة الموقف الأدبي .العدد:424.آب2006.ص:1

[3]- ديفد لودج . الفن الروائي . تر:ماهر البطوطي . المجلس الأعلى للثقافة . 2002 ص114.

[4]- تبعا لهذا توجد أنواع كثيرة للتناص منها: أن يشير نص معين إلى آخر، المحاكاة التهكمية . القص واللصق . الترجيع . الإشارة والإقتباس المباشر . الموازاة في التركيب . المرجع نفسه.

© مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها.
جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر.2009

http://labreception.net